

مُقَدِّمَةٌ

لا أدري إن كنت أستطيع أن أسمى هذا كتاباً ؛ لأنه في الحقيقة مجموعة آراء تكونت داخل نفسي ثم خرجت منها - ربما على رغمي - شيئاً فشيئاً في صورة مقالات عن الفكر العربي ، فأنا رجل أقرأ كثيراً جداً ، والكتب تملأ حياتي ، وأنا أحس أحياناً أنني كتاب ، وأنني واحد من كتب مكتبتني ، فإذا أعجبك ، فالحمد لله وإلا فإنني أرجوك ألا تغضب عزيزي القارئ ، وألا تحاول أن تناقشني ؛ لأنني لن أرد ، فأنا لا أملك ما أقوله نظراً لأنني قلت كل ما عندي في موضوع الفكر العربي ، وهذه الآراء كلها داخل نفسي وما كان لي أن أخرجها من نفسي ، ولكنها خرجت ، والذي أدهشني عندما بدأت أنشر هذه الدراسات أن الناس رحبوا بها ترحيباً عظيماً ، وقراء هذا الكتاب زادوا على قراء أي كتاب آخر لي ، وإلى يومنا هذا يتصل بي ناس بالتليفون ويسألون : أين الكتاب ؟ ! وأنا الآن أقول : هذا هو الكتاب ، (مبسوطون) ؟

وكل واحد منا في ذهنه مثل هذا الكتاب ، فنحن كلنا نقرأ ، والفكر العربي موجود في صورة ما في ذهن كل واحد منا ، ولكن المسألة هنا هي مسألة كتابة ما في ذهنك عن الفكر العربي ، إنها مسألة تأليف ، والتأليف تسبقه مسألة ترتيب ، فكل شيء موجود في ذهنك ، هذا صحيح ، ولكنه مضطرب غير مرتب ، ثم إن الموضوعات في ذهنك غير كاملة . فهي تكونت نتيجة للقراءة أو لسماع المحاضرات ، ولكنها شيء من الشرق وشيء من الغرب ومعلومات متناقضة وغير مرتبة ، ولكي تكتبها لابد أن تجلس وتجمع الكتب وتقرأ بعناية ما في ذهنك وترتبه وتكمله على قدر ما تستطيع ثم تأخذ في الكتابة ، وما كتبت اليوم تبيضه في الغد ، وتظل تكتب وتبيض ولا شيء مما تكتبه يعجبك حتى تطلع روحك ، ومع ذلك فأنت تجد في النهاية أنك لم تألف كتاباً وإنما هو كلام مجموع في صورة غير لائقة .

ولكنني عندما شرعت في كتابة هذا الكتاب لم يكن في ذهني أن أسجل ما يحول في خاطري ، فإن الذي في ذهني عن الفكر العربي قليل ولا يستحق التسجيل ، إنما

لدىّ في ذهني أفكار غريبة عن الفكر العربي ، وقد أردت أن أكتبها في شكل منظم وأجعل منها كتاباً ؛ لأدخل في مناقشات مع الناس ، وعندما بدأت الفصول تظهر في مجلة أكتوبر انهارت على الرسائل من كل مكان في العالم العربي ، ومعظم هذه الرسائل ليست غاضبة بل هي خطابات مندهشة ، وتبينت مع مرور الزمن أن الناس (مبسوطون) .

والحقيقة أننا في العالم العربي ليس لدينا تواريخ كافية للفكر العربي ، إنما نحن لدينا تواريخ للأدب العربي مختصرة جداً مثل تاريخ الأدب العربي لجورجي زيدان أو مطولة بعض الشيء مثل تاريخ الأدب العربي للدكتور شوقي ضيف ، ومع أن هذه تواريخ طيبة إلا أنها تقتصر أولاً على الأدب العربي ، ثم فيها ثانياً نقص كبير ، ولو أنك رأيت تاريخاً للفكر الإنجليزي أو الفرنسي أو الأسباني لدهشت ، فإن أنواعها ممتازة ، ثم إنها من كل حجم ، ما بين مجلد واحد وعشرين مجلداً ، ومعنى ذلك - بكل صراحة - أننا ليس لدينا تواريخ كافية لا للفكر العربي أو الأدب العربي ، وقد تدهش إذا علمت أن التاريخ المحترم الوحيد للفكر العربي هو الذي كتبه الألماني كارل بروكلمان ، وأنا أعتمد عليه اعتماداً تاماً .

ولكنني أرجو القارئ ألا يظن أن الآراء التي أسوقها هنا مبادئ تؤمن بها ولا أتنازل عنها ، فهذه في الحقيقة آراء عامة مما يقع في خاطر ولا يصعب التخلي عنها إذا تبين خطأها ، إنها في الحقيقة آراء أسوقها إلى القارئ راجياً منه ألا يغضب إذا لم يعجبه شيء ، فأنا مستعد أن أتخلى عن آرائي وأغير منها ، فإن الآراء ينبغي أن تكون قابلة للتغيير ولا معنى أبداً للتمسك بالآراء كأنها عقائد ، إنما أنا أقول لك إنه لا ترضيني قلة الآراء الشخصية الخاصة بالفكر العربي عندنا ، فإن الناس - حتى المتخصصين - لا يحفظون في أذهانهم إلا القليل جداً من المعلومات عن الفكر العربي .

وأنا أسألك الآن : أنت طبعاً تعرف كتاب « البيان والتبيين » لأبي عثمان عمرو ابن بحر الجاحظ ، ولكنني عندما أقول لك : اكتب لي صفحتين عن هذا الكتاب فأنت لن تستطيع ؛ لأن الأفكار موزعة في ذهنك والكثير منها أشبه بالضائع ، والذي أفعله أنا هنا هو أنني أجمع الأفكار التي في ذهني وذهنك عن الفكر العربي

وأضعها أمامنا لكي نفكر فيها ، وقد وجدت لذة كبرى في ذلك وأنت أيضاً ستجد مثل هذه اللذة ، بل ستجد عندك لذة في أن تقرأ هذا الكتاب أكثر من مرة ؛ لأنه فعلاً طريف ، أحياناً ستحس أنك غير راضٍ عما تقرأ ، ولكنك عندما تقرؤه مرة ثانية ستجد لذة في إدارة ذهنك فيما تقرأ ؛ لأن الفكر العربي في الواقع طريف جداً ، ولكننا مهملون ، ونحن لا نعننى بأشياءنا ، فحاول الآن أن تقرأ هذا الكتاب أكثر من مرة ، وحاول أن تدبر ذهنك فيما تقرأ ، وليس من الضروري أن تنتهى إلى رأى ، بل المهم أن تدبر ذهنك في الفكر العربي وترجع إلى الكتب وتراجع ما تقرأ مرة ومرتين أو ثلاثة ، فهذا هو الهدف الذي كُتِبَتْ هذه الفصول من أجله .

وبعد ، فهذا الكتاب مقدمة للفكر العربي ، ولا أريد أن أجعل هذه المقدمة مقدمة طويلة ، فأنا سأتركك الآن لتقرأ الكتاب وتفكر فيه ، ويمكنك أيضاً أن تكتب لى فأنا أحب المناقشة ، فاقراً وليعنيك الله على الاستمرار في القراءة ، والله سبحانه معك ، وهو سيعينك ، ونحن جميعاً سندخل بهذا الكتاب في ندوة عن الفكر العربي ، والله سبحانه يعيننا كلنا بإذنه .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . .

المؤلف

ك. حسين مؤنس